نظم مثلث قطرب وشرحه

عبد الله كنون

هناك الفاظ تشتبه حروفها ، ويختلف شكل اولها باختلاف المعنى ، فالمفتوح له معنى غير معنى المكسور ، والمضموم كذلك معناه غير معنى هذين ، وهى المعروفة بالمثلثات ، واحدها مثلث . وقد كان اول من اثارت انتباهه ، هو اللغوى الكبير المشهور بقطرب ، واسمه محمد بن المستنير ، تلميذ سيبويه ، وهو الذى اطلق عليه لقب قطرب ، تشبيها له بهذه الدويبة التى تسمى بذلك الاسم لحركتها الدائبة ، وجمع صاحبنا هذه الالفاظ فى كتاب صغير يعرف بمثلث قطرب اعتنى به الناس كثيرا ، والف فى موضوعه بعده غير واحد من اهل العلم كابن السيد البطليوسى وابن مالك صاحب الالفية والفيروزبادى صاحب القاموس . وآخر من

علمت انه الف فيه الشيخ حسن قويدر الخليلى من اهل القـــرن الثالث عشر الهجرى ، له فيه رجزية بديعة النظم اولها :

يقول من اساء واسمه حسن لكن لـــه ظن بمولاه حسن

وهى مطبوعة بالمطبعة الاميرية فى بولاق عام 1301 هـ .

وانا فى هذا البحث القصـــير لا يهمنى من هذه المؤلفات فى المثلـــث الا ما عنونت به البحث وهو نظم مثلـــث قطرب وشرحه ، فكتاب قطرب نفسه لا اتعرض له ولا لما كتب عليه من ذيل او شرح ، لان ذلك يطول .. وما بعثنى على الاهتمام بهذا النظم الا طرافته والاسلوب الذى تناول به موضوع المثلثات ، وهو موضوع لغوى بحت ، فأحالـــه بحسن تأتيـــه وبطريقة التورية الى عمل ادبى جميل ؛ الى شعر غزلى يكاد القصد منه ، وهو نظم المثلثات يخفى على قارئه .

وهذه الطريقة هى التى ارتكبها ناظم آخر لعلم مصطلح الحديث ، وهو العلامة ابن فرح الاشبيلى نزيل دمشق ، ففرغ معانى المصطلح فى قصيدة غزلية رائعة ، بلغت غاية الشهرة وتعرف بقصيدة (غرامـــى صحيح) ، اخذا من الجملة الاولى فى مطلعها الذى يقول فيه صاحبها :

غرامى صحيح والرجاء فيك معضل وحزنى ودمعى مرسل ومسلسل

نورى فى هذا المطلع بأربعة القاب من القاب الحديث الشريف ، وهـــى الصحيح والمعضل والمرسل والمسلسل ، وذلك من حيث لا يشعر السامع او القارىء بمقصده ، ومن ثم قيل ان هذه القصيدة لو قرئت على عربى قح لما فهم منها غير الغرض القريب وهو التغزل ، اما الغرض البعيد وهو نظم الاصطلاح فانه لا يخطر له ببال .

ولاستحسان هذه القصيدة شرحها كثير من العلماء ونسج العلامة الصبان على منوالها قصيدة فائية يقول فى مطلعها :

صلوا صحيح غرام صبره ضعفا وبدلوا قطع من فى حسنكم شغفـــا

ولا اقول ان ابن فرح قلد ناظم المثلث ولا ان صاحبنا هذا قلد ابن فرح ، فهما كانا متعاصرين وكان ناظم المثلث احرى ان يكون هو المقلد لابن فرح ، لما علم من ان الاندلسيين هم مبتكرو هذه الفنون من القول والرمز فى نظمهم للعلوم ، كما فعل الشاطبى فى قصيدته المشهورة فى علم القراءات والخزرجى فى قصيدته العروضية . ولكنا هنا بصدد لون آخر من النظم وهو استغلال نوع التورية من محسنات البديع ، وصاحب نظم المثلث وان عاصر ابن فرح ، فهو متقدم عليه فى الوفاة بنحو عشر سنين ، ولذالك ينتفى الترجيح بينهما فى الاسبقية لهذا الاسلوب فى النظم ، وما ينبنى على ذلك من تقليد احدهما للآخر .

وقد وهم بعضهم فى نسبة هذا النظم لقطرب نفسه ، كما يفهم من كشف الظنون وتبعه على ذالك صاحب معجم المطبوعات . مع ان فى آخر النظم ما ينفى ذالك ، ويثبت ان الناظم شخص آخر غير قطرب . نبه على هذا الاستاذ خير الدين الزركلى فى قاموس الاعلام . والناظم الحقيقى هو عبد الوهاب المهلبى البهنسى المتوفى سنة 685 كما فى قاموس الاعلام ؛ وبروكلمان ؛ وفى نسخة خطية من النسختين اللتين تحت يدى ؛ وعليهما اعتمادى فى النص الذى سأقدمه من هذا النظم . فقد ختمت هذه النسخة ببيتين اشك فى نسبتهما للناظم لهلهلة نظمهما وان كنت لا اشك فى ان صاحبهما كان يعرف من هو الناظم وراى خلو النظم من اسمه ؛ وربما اطلع على الوهم المشار اليه فى نسبة النظم لقطرب ، فنظم البيتين وذيل بهما المنظومة الجميلة التى تستحق التعريف بصاحبها . وسأشير الى هذين البيتين عند تقديم النص فى التعليق ، وفى النسخة الخطية الاخرى وهى بخط الوالد نسبته كذلك للمذكور الا ان فيها عوض البهنسى البلنسى ، مع زيادة وصف الاندلسى ولعله تحريف ، وتأكيدى على نسبة النظم للبهنسى من هذه الطرق ، لكون مترجميه لم ينسبوا له تأليف ايا كان ، لا هذا النظم ولا غيره ، وان وصفوه بأنه كان فقيها اصوليا نحويا نظارا ، وانه ولى قضاء مصر والوجه البحرى ، ومن قوة عارضته ان الشيخ شهاب الدين القرافى حضر عنده مرة وقت الدرس ، وهو يتكلم فى الاصول فشرع القرافى يناظره وصاحبنا يعلو

بكلامه عليه ، فقام طالب يتكلم بينهما ، فاسكته وقال له : فروج يصيح بين الـــديـــكـــــة .

وقد ثبـــتت ترجمته فى طبقات الشافعية للسبكى وبغيـــة الوعـــاة للسيوطى وشذرات الذهب لابن العماد .

على ان النظم نفسه لم يشتهر وينتشر بما فيه الكفاية حتى يصيـــر متداولا ومعروفا بين جميع الناس ، وغاية ما يذكر منه مطلعه او الشطر الاول من المطلع ، واشهر منه عند العلماء شرحه الذى نتكلم عليه قريبا . ولعل ذلك لانه يعتبر كمنظومة غزلية انما تهم اهـــل هذا الشأن فى حين ان الشرح يعتبر متنا لغويا يستظهر به فى تفسير معانى هذه الالفاظ .

ويذكر بروكلمان ان المستشرق فلمر نشره سنة 1857 ونشره ايضا الاستاذ محمد بن شنب فى الجزائر سنة 1907 . . ولـــم اقـــف على اى منهما . واود عند العثور عليهما ان اجد فيهما ما يكمـــل هـــذا البحـــث ويطعمه بما ليس فيه .

واعتمادى فى النص الذى اقدمه على نسختين فى خزانتنا الكتونية ، احداهما بخط الوالد رحمه الله والاخرى بخط غيره ، وهى على ما يظهر اقدم قليلا وان كانت اكثر تصحيفا . وقد اجتهدت فى ان اخرج منهما نسخة صحيحة بقدر الامكان ، مساهمة فى نفض الغبـــار عن هذا الاثـــر الادبى النفيس ، وتعاونا مع العاملين على خدمته . . ولهذا المعنى قلت (النص الذى اقدمه) ولم اقل (الذى انشره) تفاديا من التزامات النشر العلمى التى تقتضى مقابلة اكثر ما يمكن من النسخ المخطوطة بعضها مع بعض والاطلاع على الطبعات السابقة للكتاب . فانا لا ادعى شيئا من ذلك ، وانما اعطى صورة مما عندى تفيد فى ترويج هذا النظم وتسهم فى تحقيقه ولـــو بأقـــل نصيب .

ذلك ما يتعلق بنظم المثلث ، واما شرحه فانـــا اعنى بـــه الشرح المنظوم على نسقه وترتيبه وهو المسمى بالمورث لشكل المثلث المنسوب

خطأ فى ايضاح المكنون ذيل كشف الظنون لعبد العزيز الديرينى الدميرى سنة 694 . . وذلك لانه كما نرى توفى بعد ناظم المثلث بتسع سنوات ، فيبعد ان يكون شارحا له من غير ان تكون بينهما علاقة كالتلمذة او الصداقة تمكنه من الاطلاع على النظم وتبمثه على شرحه ، ولم نطلع على شىء من ذلك ، فيبقى الاستبعاد حافا بهذه النسبة . . ثم ان ترجمته ليس فيها ذكر لهذا الشرح ، على حين جاء فيها ان له ارجوزة فى علم التفسير تزيد على 3000 بيت ، وكتبا اخرى منها طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب فى التصوف وهو مطبوع معروف .

واقطع من كل هذا فى عدم صحة نسبته اليه انه جاء فى آخره اعنى الشرح ، التصريح بأن صاحبه مغربى ، والديرنى مصرى لا شك فيه .

وكنت ابحث عن عبد العزيز المغربى هذا الذى يمكن ان يكون ناظم الشرح ، فوقفت على شخص بهذا الاسم هو عبد العزيز بن عبد الواحد المغربى المكناسى شيخ القراء بالمدينة المنورة ، الامام العالم الاديب ، كما وصفه ابن العماد فى الشذرات ، وزاد قائلا انه كان فاضلا علامة متفننا شاعرا صالحا دمث الاخلاق كثير التواضع له عدة منظومات فى علوم شتى منها منهج الوصول ومهيع السالك للاصول فى اصول الدين ، ونظم جواهر السيوطى فى علم التفسير ، ودرر الاصول فى اصول الفقه ، ونتائج الانظار ونخبة الافكار فى علم الجدل ونظم العقود فى المعانى والبيان وتحفة الاحباب فى الصرف وغنية الاعراب فى النحو ونزهة الالباب فى الحساب والدرر فى المنطق . . الخ وتوفى سنة 964 ، فقلت ولم لا يكون له ايضا المورث لمشكل المثلث ، نظما مسمى كسائر الانظام الاخرى التى نسبها له صاحب الشذرات فى هذه الترجمة لا سيما واسمه عبد العزيز وهو موصوف بالمغربى كما فى النظم . . وزال الاشكال بالتصريح بنسبة هذا الشرح له عند بروكلمان مسمى باسمه المورث ونسبة صاحبه الى مكناس ، وذكر وفاته سنة 964 ، والنص على ان شرحه هذا نشر فى فاس سنة 1317 هـ ، وهو يعنى بنشره ظهوره فى كتاب مجموع المتون الكبير الذى طبع بفاس على الحجر مرارا ، منها الطبعة التى اشار اليها فى تلك السنة . وبروكلمان لا يقول ذلك الا لكونه

راى التصريح باسم صاحبه الحقيقى فى بعض النسخ المعتمدة او عند احد المؤلفين ممن لم نطلع عليهم ، وطبع هذا الشرح مجردا عن النظم المشروح ، مما يدل على الاهتمام به اكثر من النظم ، وذلك ما المعت اليه آنفا من كونه بين اهل العلم اشهر من اصله . ثم ان طبعته هذه تعطينا نسخة ثالثة زيادة على المخطوطتين اللتين تحتويهما خزانتنا ، وهما تشتملان على النظم وشرحه معا .

ولكنى لم اجعلهما اصلا ، بل اعتمدت على الشرح المطبوع وبنيت عليه ترتيب النظم وتصحيحه ، اذ كان قد تداولته ايدى العلماء ورددته السنتهم ، ومن املاءاتهم حفظنا بعض ابياته ولا شك انه انما اثبت فى مجموع المتون عن عدة نسخ كما هو الشأن فى المتون الاخرى ، ولا يفوتنى فى الاخير ان اشير الى ان كلا من النظم وشرحه ، من مجزو الرجز ، وعلى قافية الباء المكسورة مع تقفية الاشطار الثلاثة من كل بيتين بالحرف الاخير من اللفظ المثلث المنظوم او الشروح الا قليلا ، فهما اى النظم وشرحه على شكل الرباعيات المعروفة فى الشعر العربى .

وهذا هو النظم المستخرج من النسختين بعد مقابلته على الشرح المطبوع :

يا مولعا بالغضب ... والهجر والتجنب
فى جده واللعب ... حبك قد برح بى
ان دموعى غمر ... وليس عندى غمر
يا ايها ذا الغمر ... اقصر عن التعتب
بدا وحيى بالسلام ... رمى عدوى بالسلام
اشار نحوى بالسلام ... من كفه المختضب
تهيم قلبى بالكلام ... وفى الحشا منه كلام
فسرت فى ارض كلام ... لكى انال مطلبى

ثبت لأرض حزة ... معروفة بالحزة
فقلت يا ابن الحرة ... ارث لما قد حل بى
جد فالأديم حلم ... وما بقى لى حلم
ولا هنا لى حلم ... مذ غبت يا معذبى
حمدت يوم السبت ... مذ جاء محذى السبت
على بنات السبت ... فى المهمه المستصعب
خدد فى يوم سهام ... قلبى بامثال السهام
كالشمس اذ ترمى السهام ... بضوئها الملتهب
دعوت ربى دعوه ... لمسا اتى بالدعوه
وقال عندى دعوه ... ان زرتم فى رجب
دلفت نحو الشرب ... فلم اذد عن شرب
فانقلبوا بالشرب ... ولم يخافوا غضبى
رام سلوك الخرق ... مع الظريف الخرق
ان بيان الخرق ... منه ، ركوب السبسب
زاد كثيرا فى اللحا ... من بعد تقشير اللحا
لما راى شيب اللحى ... صرم حبل السبب
طرحنى بالقسط ... ولم يزن بالقسط
فى فيه عرف القسط ... والعنبر المطيب
ظبى ذكى العرف ... وآخذ بالعرف
وآمر بالعرف ... سام رفيع الرتب
كأننى فى لمه ... مذ شاب شعر اللمه

وما بقى لى لمه ... ولا لقى من نشب
لما اصاب مسكن ... فاح نسيم المسك
وكان فيه مسكنى ... وراحتى من تعبى
ملت دموعى حجرى ... وقل فيه حجرى
لو كنت كابن حجر ... لضاع فيه ادبى
ناول برد السقط ... من فيه ، غير السقط
فلاح رمى السقط ... من خده كالشهب
صاحبنى فى صره ... فى ليلة ذى صره
وما بقى فى الصره ... خردلة من ذهب
ضمنته نبت الكلا ... بالحفظ منى والكلا
فشق قلبى والكلى ... عمدا ولم ير تقب
عال كريم الجد ... وفعله بالجد
الفيته كالجد ... المعضل المضطرب
غنى وغنت الجوار ... بالقرب منى والجوار
فأسمعوا صوت الجوار ... ثم انثنوا بالطرب
فداره قد عمرت ... ونفسه قد عمرت
وارضه قد عمرت ... من بعد رسم خرب (1)
قولا لاطيار الحمام ... يبكينى الى الحمام
اما ترى يا ابن الحمام ... ما فى الهوى من كرب

---

(1) يلاحظ ان المثلث هنا من باب الفعل لا من باب الاسم وان اختلاف معاني الفاظه باختلاف شكل عينه وربما كان هذا مما ادرج فى النظم وشرح عليه الشارح وهو ليس منه .

سـار مـجـدا فى الـمـلا وابـحـر الـشـوق مـلا
ولـبـسـه لـين الـمـلا فقـلـت يـا للـعـجـب
شـكـلـتـه كشـكـلـى تـيـمـنـى بـالـشـكل
وغـلـنـى بـالـشـكـل فى حـبـه ، واحـر بـى
هـذى عـلامـة الـرقـاق فانظـر الى اهـل الرقـاق
هل نطقـوا بعـد الرقـاق بـالـصـدق او بالـكـذب
وجـدتـه كـا لقـمـه فى جـبـل ذى قـمـه
مـطـرحـا كـالـقـمـه قلـت لـه احفـظ مذهبـى
لا تـركـنـن للـصـل و لا تـلـذ بـالـصـل
واحـذر طـعـام الصـل وانهـض نهـوض المحتبـى
يسفـر عـن عينـى طـلا ووجنـة تحـكى الطـلا
وطلـيـة مـن الـطلـى اغـيـد لـم يحـتـجـب
فـأم قـلـبـى امـه عـنـد نـزول الامـه
فاستـمعـوا يـا امـه بحقكـم مـا صـار بـى
لـمـا رايـت دلـه وهـجـره ومـطـلـه
نظمـت فى وصفـى لـه مـثـلثـا لـقـطـرب (2)

وهذا هو الشرح على الترتيب المذكور :

---

(2) فى النسخة الثانية من المخطوطتين يجىء بعد هذا البيتان المشار الى انهما تضمنا اسم الناظم وهما ليسا له على ما قدمت ، ونصهما :

نظمـا يضـىء كالشهـاب الفـه عبـد الـوهـاب
قاضـى النحـاة والادب وفحـل أهـل المذهـب

ولا يخفى ما فى البيت الاخير من النظم ، من الدلالة على ان صاحبه غير قطرب كما نبه على ذلك فى قاموس الاعلام .